الوجود البشري في عصور ما قبل التاريخ:

- نظرية التطور واشكالية ظهور الانسان:

لقد ساد نقاش كبير في الماضي وفي الحاضر حول نظرية التطور التي تدعي أن الأجداد الأوائل للإنسان هم القردة وهو ما يخالف التعاليم الدينية لجميع الأديان، وبالنسبة لنا فإنه لا شك أن الإنسان قد حدثت عليه عملية تطور فالإنسان الأول مختلف على الإنسان الحالي، ولكنه تطور في النوع البشري في حد ذاته دون أن يكن منحدر من جنس آخر، فالناس القدماء كانوا يعمرون طويلا مثل سيدنا نوح عليه السلام وهو ما يعني تركيبة جسمية مختلفة عنا، قال الله تعالى :« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » سورة العنكبوت، الآية 14 .

وبعضهم أعطاهم الله قدرات جسمية كبيرة وهم قوم هود عليه السلام ، فقد قال تعالى : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » سورة الأعراف، الآية 69 ، وجاء في آيات أخرى أن الله كرم بني آدم ، فقد قال تعالى: « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » سورة التين، الآية 04 ، وقال أيضا : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » سورة الإسراء، الآية 70.

ولا شك أن الأجناس البشرية التي وجدت بقاياها في مختلف المناطق والتي أعطى لها الباحثون أسماء مختلفة، ماهية إلا تغيرات حدثت على الإنسان عبر الزمن والله تعالى يأتي بخلق بعد خلق ، فقد قال عز وجل : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ»، سورة إبراهيم، الآية 19 .

- السلالات البشرية التي عمرت الأرض :

انسان القرد الجنوبي:

مع نهاية الزمن الثالث ظهرت سلالات من القردة المتطورة في أماكن مختلفة من أفريقيا و كان أولى الاكتشافات الأثرية قد تم العثور عليها في **موقع تاونج** في جنوب أفريقيا على يد الطبيب الإنجليزي رايمون دارت، وكانت عبارة عن جمجمة لطفل عمره يقارب ست سنوات، سماها العلماء باسم القرد الجنوبي"استرالوبثيكس" Australopithecus وقد وجدت حفريات لها تعود إلى حوالي 4.5 مليون سنة، وقد عثر العلماء على سلالات مختلفة عن بعضها فقد وجد إحداها في منطقة "عفار" بأثيوبيا وعرف في الأوساط العلمية بـAustralopithecus afarensis (الأوسترالوبيثيكاس أفارنسيس) بمعنى **القرد العفاري** ، ووجدت انواع اخرى في أثيوبيا وتنزانيا و كينيا و جيبوتي.

كما ووجد نوع آخر في وسط إفريقيا عرف باسم "إنسان القرد الجنوبي لبحر الغزال" Australopithecus bahrelghazali ، لكن أكثر الاكتشافات إثارة للاهتمام هو الاكتشاف الذي تم في إثيوبيا عام 1974 وسماه العلماء "لوسى" وقد قدر عمره بحوالي 3.2 مليون سنة، ويعتبر" لوسى" كائنا منتصب القامة وله مخ حجمه مثل حجم مخ الشمبانزى، وهي تعتبر أقدم الكائنات الشبيهة بالإنسان بل إن الكثيرين من يعتبرون هذا الكائن مرحلة وسطى بين الإنسان وعائلة القرد الجنوبي.

- انسان العصر الحجري القديم في شمال افريقيا :

الانسان الماهر Homo habilus : ظهر في حوالي 2 مليون سنة واستمر الى حوالي 1 مليون سنة ، وهو أول جنس في هذه السلسلة البشرية واكتشفت مواقعه في منطقة ألدوفاي بتنزانيا وفي "كوبي فارا" بكينيا وفي إثيوبيا و جنوب إفريقيا وهو يعتبر أقدم الأنواع الآدمية، وكان حجم مخه أكبر من حجم مخ "لوسي" وقد اكتشفت حفرياته مع أدوات حجريه بدائية، مما يدل على أنه أول من صنع الأدوات الحجرية .

ونشير هنا إلى اختلاف الباحثين حول من أول من قام بتشذيب الحجارة، فحسب الباحثة" أوماسيب" فإن الصناعة الحجرية الأولى تعود إلى 2.6 مليون سنة وهي لا

تمثل جنس واحد بل تعود إلى ثلاثة أجناس معاصرة لبعضها البعض، وهي: الإنسان القردي بوازي Australopithecus boisei، والإنسان القردي المتين Australopithecus robustus والإنسان الماهر Homo habili، بينما يرى آخرون أن الصناعة الأولى تعود إلى الإنسان "شبه القردي"، أما الباحث "هنري لوهيرو" فيرى أن حضارة الحصى المشذبة[1] تنسب إلى كل من الإنسان شبه القردي والإنسان الماهر اللذان كانا يعيشان في وقت واحد، وقد قيل بأنه قد ظهر بعد الإنسان الماهر نوع آخر هو الإنسان العامل Homo. Ergaster الذي عاش بين 1.8 و1.3 مليون سنة لكن بقاياه لم تتواجد في كل المواقع .

الانسان المعتدل: عاش الانسان المتعتدل بين حوالي 1.8مليون سنة واستمر الى حوالي 300 الف سنة وربما استمر في بعض المناطق المعزولة من اسيا الى حوالي 100 ألف سنة أو أكثر .

ويتكون من عدة فروع أهمها: "إنسان جاوة " ويسمى علمياPithecanthropus، والثاني هو "إنسان بيكين" ويسمى علميا Sinanthropes ، وقد عرف تطورات حضارية مهمة فقد **عرف النار** وإليه تعود الحضارة الأشولية، وقد اكتشفت بقاياه في بلاد المغرب ويسمي" **إنسان الأطلس**" عثر عليه في تغنيف بمعسكر وفي موقع الرباط، إلا أن حضارته تنتشر في كل أنحاء شمال إفريقيا وقد أرخت بقاياه في تغنيف بحوالي 0,7 مليون سنة وفي الرباط بحوالي 120 ألف سنة.

وفي الوقت الذي كانت سلالة الإنسان المعتدل تعمر الأرض ظهر نوع آخر أكثر تطوراً هو **إنسان "هايدلبرغ "** الذي وجدت بقاياه في مناطق مختلفة من أوروبا وقد عاش بين 600 الف و 400 الف سنة ، وكان هذا النوع يملك دماغ أكبر من المجموعات السابقة حيث يتراوح حجم مخه بين 1100 و1400سم^3، و كان يدفن موتاه ويدهن الجثث بالمغرة مما يعني انه مارس شعائر دينية وسحرية ، وقد عاش هذا النوع بين حوالي 700 ألف و 200 ألف سنة.

---

[1] الحجارة المشذبة هي أقدم أشكال الصناعة الحجرية ظهرت في البداية في شرق أفريقيا حيث تنسب الحضارة الألدوانية إلى موقع ألدوفاي الذي وجدت فيه حجارة مشذبة وهي الأقدم في العالم.

انسان نيادرتال وانسان دينوسوفا : ظهر انسان نيادرتال منذ حوالي 400 الف سنة قبل الميلاد واستمر الى غاية حوالي 30 الف سنة ، اقتصر تواجده على اوروبا ومنطقة غرب آسيا خاصة منطقة الشرق الاوسط (البلاد العربية حاليا) ، وقد عاصره في بيا انسان دينوسوفا الذي وجدت بقاياه في كهف دينوسوفا في سيبيريا الروسية .

كان انسان نيادرتال الذي ظهر في حوالي 400 ألف سنة مختلفا عن الأنواع السابقة وأكثر تطور منهم استمر في التواجد إلى 30 ألف سنة، وقيل بأنه استمر في التواجد بعد ذلك أيضا فقد أرخت مواقع متأخرة له في موقع "بيزافايا" في الأورال شمال روسيا ب 27000 قبل الحاضر، وأرّخت بقايا أخرى له في مضيق جبل طارق وفي جنوب البرتغال بحوالي 30ألف سنة قبل الحاضر .

ولم يتواجد هذا الإنسان في شمال إفريقيا أو في الصحراء، في حين وجد نوع محلي يدعي إنسان "جبل إيغود" الذي عثر عليه بالمغرب الأقصى الذي يعود إلى ما يقارب 70ألف سنة وإنسان "كهف هوافتيح" الذي عثر عليه في ليبيا وهو يشبه إنسان "نيادرتال" الذي عثر عليه في فلسطين، مما يعني وجود انتقال سكاني بين المشرق والمغرب وأوروبا، والمعروف أن إنسان نيادرتال هو صاحب الحضارة الموستيرية التي انتشرت في أنحاء العالم.

تميز انسان نيادرتال بانه كان مفتول العضلات اشعري الانسان اشقر البشرة بعيون زرقاء او خضراء، وتميز بعيونه الكبيرة ، كان على العموم قصير القامة مقارنا مع الانسان العاقل الذي يأتي بعده، عاش في المناطق الباردة في أوروبا والتي تاقلم معها جيد، انتقل الى الشرق الاوسط حيث وجدت بقاياه في فلسطين، يعتقد بعض الباحثيين أن انسان نيادرتال ينحدر من **انسان هيدلبرغ** الذي عمر اوروبا قبل ذلك.

الانسان العاقل: عاش بين 200 الف سنة ربما اقدم من ذلك واستمر في التواجد الى الوقت الحالي، غير أنه يتكون من عدة اجناس منها الانسان العاقل والانسان العاقل العاقل والانسان ما قبل متوسطي وانسان البحر المتوسط وهو الانسان الحالي .

فبعد موجة إنسان نيادرتال **ظهرت موجة الإنسان العاقل** الذي كان معاصر له أيضا، يذكر الباحثون أن الإنسان العاقل ربما اختلط وتزاوج مع انسان نيادرتال، وربما كان ذلك في الشرق الأوسط وليس في أوروبا أي مباشرة بعد خروج الإنسان العاقل من إفريقيا وذلك منذ حوالي 200ألف سنة، وقد عمر هذا الجنس الأرض بشكل كبير في حوالي 100 ألف سنة، واليه تعود كل من الحضارة الأورغنايسية والسوليتيرية[2] والمجدلانية والغرافيتية [3] والبيروغوردية في أوروبا، أما في شمال إفريقيا فقد انتشرت الحضارة العاترية بشكل واسع ووصلت إلى مصر.

وبالنسبة للإنسان صانع الحضارة العاترية فهو بلا شك الإنسان العاقل وقد عثر على بقايا العضوية في الكثير من المواقع بصفة خاصة في المغرب الأقصى في كهف دار السلطان الثاني، وفي كهف الزهرة بالحرحورة وفي كهف تِمارة، ومغارة العالية قرب طنجة وفي موقع الصخيرات قرب الرباط، كما عُثر على بقايا عضوية للعاترية في موقع نزلة الخاطر بمصر العليا.

انسان كرومانيون وإنسان المشتى:

لقد عاصر الإنسان العاتري **إنسان كرومانيون**Cromagnon الذي انتشر في جنوب أوروبا، وظهر معه في فترة متقاربة إنسان "شانسيلد" فى فرنسا وإنسان "توشكى" فى مصر وإنسان وادي حلفا بالسودان[4]، وهو اقرب الاجناس البشرية لجنس البحر المتوسط الذي يعمر المنطقة اليوم، وفي شمال افريقيا ظهر **إنسان المشتى** ممثل الحضارة الايبرومغربية.

---

[2] السوليتيرية من حضارات الباليوليتي الأعلى ظهرت في جنوب غرب إسبانيا وفي البرتغال في 20ألف قبل الحاضر، ثم بشكل متأخر ظهرت في فرنسا.

[3] الغرافيتيةGravettien : كانت هذه الحضارة بين 29 ألف و 19 ألف سنة قبل الميلاد انتشرت في كامل أنحاء أوروبا، وقد أصبحت الأدوات الحجرية والعظمية فيها خفيفة وأكثر دقة وتطورا.

[4] إنسان وادي حلفا وُجد في النوبة شمال السودان وهو يعود إلى العصر الحجري القديم المتأخر، ويتميز هؤلاء بوجود ملامح مشتركة مع الإنسان المشتاوي، وهذا ما لاحظه الباحث فراد واندورف بشكل كبير في منطقة جبل الصحابة أيضا، ولكن هذا الإنسان الذي ينتمي إلى " كرومانيون" أيضا متأخر في الزمن عن إنسان المشتى، وهو يتميز عنه بانصباب الفك نحو الأمام إلى جانب صفات أخرى مختلفة ، كما أن حضارتهم والتي تسمى الكادية Qadier تختلف عن الإيبرومغربية فهي تتميز بكثرة الأزاميل والمثاقب وقلة النصال مضروبة الظهر.

انسان المشتى: عاش بين حوالي 17000 ق.م و 10000 ق.م تقريبا وقد عمر منطقة شمال افريقيا في العصر الحجري القديم المتأخر فقد شهدت المنطقة تواجد جنس من أوائل المتوسطين الذين ينتمون إلى جنس الكرومانيون–Cro) (Magnon، ويسمون بالمشتاويون نسبة إلى المواقع التي وجدت فيها بقاياهم وهي كل من **مشتى العربي بشلغوم العيد قرب قسنطينة ومشتى أفالو بورمال ببجاية**، وإلى هؤلاء تنسب الحضارة الإيبرومغربية.

يتميز هذا الانسان بقامته الطويلة التي تتراوح ما بين 1.74 و 1.72 م بالنسبة للرجل وأقل بعدة سنتيمترات بالنسبة للمرأة، كما يتميزون بقلّة الانسجام ما بين الوجه العريض ومحجر العين ذي الشكل الطويل، والأطراف طويلة والمرافق والسيقان ممتدة والأيادي طويلة ورقيقة، أما الرأس فلا يوجد فيه انسجام بين الجمجمة والوجه بسبب الجبهة العريضة المنخفضة كما أن باطن الجمجمة بارز ومنحني، أما محجر المخ فهو ذو حجم كبير يبلغ 1650سم^3، ويتميز المشتاويون أيضا بالعضلات القوية.

والمظهر العام للجمجمة يدل على الوجه الواسع كما أن الفك قوي ومحاجر العين منخفضة ومستطيلة الشكل يعلوها مفرق وقوس الحاجب، وفتحة الأنف متوسطة، أما العظام فهي طويلة وقوية والجسم صلب وقوي وضخم، وقد وجدت بقاياهم في تافوغالت بالمغرب الأقصى حيث عُثر على عدد كبير من البقايا الإنسانية إذا وجدت بقايا لأكثر من 180 فردا من الرجال والنساء والأطفال، بينما عثر في آفالو بورمال ببجاية على أكثر من 50 فردا.

ويجدر بنا التأكيد على أن الأنواع السابقة من أشباه البشر والبشر الأوائل والسلالات اللاحقة عاشت كلها في عصر البلايستوسين، في ظل ظروف مناخية تتميز بالبرودة وطغيان الجليد، ومع أن الجليد كان ينحصر من وقت لأخر إلا أن الظروف المناخية كانت قاسية، ولم يكن الإنسان يحضى بكمية كافية من الغذاء، ومنذ حوالي 10آلاف سنة تحسن المناخ في مختلف المناطق، وتحسنت معه حياة الإنسان الذي انتشر في كامل المناطق، وفي هذا الوقت ظهر نوع بشري أكثر تطور

وهو يمثل اقرب الأنواع إلى الإنسان الحالي عرف في الأوساط العلمي باسم "الإنسان المتوسطي".

الانسان القفصي : عاش بين حوالي 9000 ق.م و 4000 ق.م ويعرف بانسان ما قبل متوسطي أي ما قبل الانسان الحالي في شمال افريقيا) وهو أقل قِدما من جنس المشتى، وقد وجدت بقاياه في: "عين متشرم" التونسية، و"خنقة الميهاد" و"عين دوخارة" بتيبازة، كما وجدت خمسة مدافن أخرى لهم ب فايد السوار Faïd Souar) (II بأم البواقي التي تعود إلى القفصية العليا 7800–5500 قبل الحاضر، ووجدت بقاياهم في كلومينا‌طة بتيارت أيضا.

الفرق بين الإنسان القفصي وإنسان المشتى:

يعتقد الباحثون أن الجنسين كانا يعيشان في وقت واحد رغم أن المشتاوين أقدم من القفصيين، ومع بداية النيوليتي انتشر القفصيون في كامل بلاد المغرب بينما انعزل الإيبرومغربيون في الجبال والكهوف وهاجروا نحو المحيط الأطلسي ثم نحو جزر الكناري.

ويتميز القفصيون بأنهم أقل غلظة وقساوة من المشتاويون وفق الأبحاث التي قامت بها ماري كلود شاملة، ويتميز الإنسان المشتاوي عن القفصيين بقامته الطويلة وعضلات المفتولة وقوامه الرشيق والقوي، والمعروف أن الإنسان القفصى أقام في المناطق الداخلية وامتد إلى الجنوب، وتركز وجوده في جنوب شرق تونس وشرق الجزائر إلى غاية منطقة أولاد جلال واتجهوا في الألف الرابعة إلى السهول القسنطينية .

ويتميز الإنسان المشتاوي عن القفصيين بقامته الطويلة وعضلات المفتولة وقوامه الرشيق والقوي، والمعروف أن الإنسان القفصى أقام في المناطق الداخلية وامتد إلى الجنوب، وتركز وجوده في جنوب شرق تونس وشرق الجزائر إلى غاية منطقة أولاد جلال واتجهوا في الألف الرابعة إلى السهول القسنطينية، ورغم أنهم اتجهوا غربا إلا أنه لم يعبروا جبل طارق إلى أوروبا، ومن الممكن أنه استمروا بعد ذلك في التواجد

ليصادفوا أوائل الفنيقيين البحارة، ومن الممكن أن يكون هؤلاء القفصيون هم أجداد البربر.

ومن الممكن وجود أصل مشترك بين القفصيين والمشتاويين، فحتى من الناحية الحضارية هناك تشابه واضح بين الثقافتين مما جعل بعض الباحثين ومنهم ڤوبرت وفوفريGobert et Vaufery (E G) يعتقدون أن الإيبيرومغربية هي حضارة ساحلية للقفصية، ويحتمل أن إنسان الحضارة القفصية متحدر من جنس مشتى آفالو ولكنه أقل غلظة منه وفق ما تذكر الباحثة "ماري كلود شاملة".

البربر او الامازيع هل هم أنفسهم القفصيون القدامى:

يساند فكرة الأصول القفصية للبربر الباحث "ليونال بالو" الذين يستدل بالطقوس المدفنية الذي وجدت لدى القفصيين والتي استمرت في التواجد لدى البربر فيما بعد ، أما الباحث "جون ديسبوا" فيرى أن هناك تشابهاً بين الإنسان القفصي وبين إنسان بعض حضارات كينيا ومصر العليا وذلك اعتماداً على وجود ملامح زنجية لهذا الإنسان، مما يعني أصول إفريقية وفق ما يذكر هذا الباحث، والمرجح بالنسبة له أن القفصيون هم أجداد للبربر.

ويختلف الباحثون في أصول البربر بين الإنسان المشتاوي والإنسان القفصي، فالباحث "محمد العربي عقون" إلى جانب باحثين آخرين يعتقدون بالأصول القفصية للبربر، بينما تذكر الباحثة "مليكة حشيد" أن أوائل البربر يشبهون المشتاويون من حيث الخصائص الأنثروبولوجية، وتضيف هذه الباحثة أن هناك تشابهاً واضحاً بين القفصيين والمشتاويون من الناحية الحضارية وخاصة في الطقوس المدفنية إذ يبدوا أن للحضارتين أصل مشترك من الناحية البشرية.

وغالب الضن ان البربر أو الامازيع الذين عاشوا في شمال افريقيا قد لا يكونون من جنس واحد بل من عدة اجناس فقد امتزجت اقوام قادمت من الشرق ومن الشمال عبر الزمن مع اقوام اصلية لتكون هذا الشعب الذي يتميز بتنوع عرقي واضح.